الاحتفال بذكرى الاستاذ الامام

٢

كلمة الاستاذ منصور فهمي

أيها السادة

منذ أكثر من عشرين عاما ونحن صبية في أيام الدراسة الاولى اذكر انني كنت مع رفيق لي في شارع الدواوين

قيد أبصارنا على مقربة من باب احدى تلك الدواوين مرأى شيخ معمم أشيب، ربع القامة، مهيب الطلعة، لطيف المشية

نظرنا الى الشيخ نظرة المتفرج المتعجب حتى دخل الديوان وتوارى عن أبصارنا . قال صاحبي ذلك هو الشيخ عبده فقلت : كان ينبغي أن نحييه، وعاتبت رفيقي على أنه لم يبدأ بالتحية فأجبته وعاتبني اذ لم أكن البادئ فيابعني . ثم حمل كل منا رفيقه اثم ذلك التقصير وتمحل كل منا ما استطاع أن يدفع به عن نفسه من المعاذير

سرنا في سبيلنا واستبقى خيالي صورة ذلك الشيخ الذي كنت رأيته المرة الاولى، وأخذت تمر امام نفسي تلك الاقوال التي كانت تقذف حول اسم ذلك الرجل الجليل

أخذت أتصور معنى الاصلاح لاني كنت اسمع انه من المصلحين . ومعنى العلم لاني كنت اسمع انه من أكبر العلماء . ومعنى الخروج عن المألوف لاني كنت اسمع انه من الذين خرجوا عن المألوف الذي لايعتمد على حق، ولا على عقل ، ومعنى العظمة لاني كنت أسمع انه كان عظيما

أخذت المعاني المختلفة تتوالى على ذهني الضعيف الغض لان الاحاديث التي كانت تدور حول اسم الشيخ كانت مختلفة الالوان أيضاً

ما كنت أستطيع وقتئذ أن أدرك حق الادراك معنى العلم ولا معنى الخروج

عن المألوف ولا معنى العظمة ولا معنى الاصلاح . كنت لا أدرك ذلك وكان زميلي مثلي لايدرك تلك المعاني أيضاً، ولكنا كنا نشعر بشيء واحد . هو رغبتنا الصادقة في أن نؤدي لذلك الرجل تحيتنا اكباراً له واجلالا

كما رغب في ذلك أيها السادة كان في نفوس الصغار والسذج حساً يدركون به معنى العظمة وشعوراً خاصاً يتبينون به ميزة الرجل العظيم، رغم مايسترها من أقوال المتقولين، وذم الحاسدين، وثائرة الجاهلين

قضى القضاء أيها السادة أن تكون تلك المرة التي رأيت فيها الشيخ هي الاولى والآخرة ولكن الله يريد أن اقف اليوم لاحيي الشيخ تلك التحية التي كنت أريد أن أقدمها اليه منذ عشرين عاما

نعم أيها السادة كنت أريد أن احيي ذلك الرجل وأنا صبي في بداية العمر وبداية العلم، واليوم أتقدم لتحيته وأنا أخدم العلم الذي كان الشيخ يخدمه وأحصل ثمارا كان الشيخ [illegible] أذهان طالما أراد الشيخ أن تشبع علما

كنت أريد أن احيي الشيخ من عشرين عاما لاني كنت أشعر انه عظيم وممتاز، والآن أتقدم لتحيته وقد أصبحت أدرك شيئاً من معاني العظمة والامتياز

***

العظمة أيها السادة واسعة، واسعة، تتضاءل أمام سعتها وهيبتها كل المعاني

العظمة من المعاني التي اذا مست الكون ينعدم عنده الفاسد ويتلاشى الحقير، ويظهر الصالح، ويعلو الكبير .

العظمة متحركة لاتعرف القرار والسكون وتمتد كالاثير المستمر في كل جهة وتعمل فيما يصيبه عملها النافع

لا تعرف القرار لانها تجري وراء الكمال وأمام الكمال . . . .

على ذلك يكون الرجل العظيم هو الذي يريد أن يعوض الناقص بالكامل ويعتمد على نفسه لمثبية المارة . لا يريد أن يقف حيثما يقف الناس، لانه يرى

الحياة سائرة والكمال سائرا وهو يسير إنما سارا . لا تكون نفسيه حيث تكون نفسيات الناس لأنها كبيرة تمتد في الوجود اللانهائي، ونفسيات عامة الناس صغيرة متضائلة لا تسد في الوجود الا فراغاً يسيراً .

تلك هي بعض صفات العظيم فهل كان الرجل الذي نذكره اليوم على شيء من هذه الصفات ؟ .

ان من يطلع على حياة الشيخ يتبين القوة العظيمة التي كانت تقوم عليها نفسه الكبيرة وأدل دليل على ذلك ان الاعمال التي اتصلت بها جهوده وقع فيها حرب بين أسلوب القديم وأسلوب الجديد وكان هو حامل لواء الثاني وكان في جهاده مظفراً منصوراً .

أليس هو الذي عند اتصاله بصناعة الصحافة والتحرير أدخل في التحرير أسلوبا أصح ووجه الكتابة العربية وجهة الدقة والطلاوة .

أليس هو الذي أدخل الأساليب الحديثة في التعليم بالأزهر عند اتصاله بإدارته؟

أليس هو الذي أ[illegible] الإسلامية بالينابيع الصحيحة الواسعة ويوجهها وجهة الطرق العلمية الصحيحة؟

أليس هو الذي كان صوته عالياً في محاربة روح الاستبداد والجمود أينما تكون ؟

أليس هو الذي أكبر شأن الافتاء عند اتصاله بذلك المنصب الكبير وأخذ يفتي في اقطار الاسلام المختلفة بمسائل دقيقة فتح بها للافتاء الشرعي مسلكاً جديداً ؟

أليس هو الذي كان يوفق بين روح المحافظة وروح التجديد وروح الدين وروح العلم حتى يستفاد من حسناتها جميعاً ؟

أليس هو من أصحاب الفضل في المناداة بحرية الفكر واحترام استقلال الرأي ؟

ان الجيل الناشئ مدين للشيخ عبده بجهود التسامح وتقدير فوائد الاستقلال الفكري، وقد جهر الشيخ بفضل ذلك في خطبة ألقاها بتونس اذ يقول : « أقول قولي هذا ولا أريد به الزام سامعه بقوله وإلا خالفت ما أدعو اليه من استقلال الفكر وحرية الرأي . . »

ان الجيل الحاضر يقدر له بلاءه الحسن في احترام الرأي القائم على التفكير ويجب أن يقدر له المشتغلون بالعلم صيحته الصارخة بوجوب تعديل التعليم بحيث يخرج العلماء المشتغلين بالابحاث العقلية المحضة

قال بذلك في وصيته السياسية التي كتبها بالفرنسية الى الكونت دي جريفيا (فنشرها) في مؤلفه مصر الحديثة في ٦ يونيو سنة ١٩٠٥ أي قبل موته بنيف وثلاثين يوما وسينشر أخونا الدكتور طه حسين تعريب هذه الوصية قريبا

قال الشيخ في هذه الوصية :

«اذا نظرنا الى التعليم الذي تنشره الحكومة من حيث قيمته فنحن مضطرون الى أن نلاحظ أنه لا يكاد يقدر الا على تكوين رجل محترف بحرفة يكتسب بها الحياة، ومن المستحيل أن يستطيع هذا التعليم تكوين عالم أو كاتب أو فيلسوف فضلا من تكوين [illegible] من المدارس التي تمثل التعليم العالي في مصر أعني مدرسة الحقوق والطب [illegible] وأما بقية الفروع التي يتكون منها العلم الانساني فقد [illegible] في المدارس الاعدادية ويكاد يكون من المستحيل أن يتقن منها شيئا، وهو في الغالب مكره على أن يجهلها جهلا تاما، وذلك شأن العلم الاجتماعي وفروعه التاريخية والخلقية والاقتصادية ذلك شأن الفلسفة القديمة والحديثة والآداب العربية والاوروبية والفنون الجميلة أيضا، كل ذلك مجهول لا يدرس في مدرسة مصرية . والنتيجة أن في مصر قضاة ومحامين وأطباء ومهندسين ، تختلف كفاءتهم قوة وضعفا في احتراف حرفهم، ولكنك لا ترى في الطبقة المتعلمة الرجل الباحث، ولا المفكر، ولا الفيلسوف، ولا العالم . لا ترى الرجل ذا العقل الواسع . والنفس العالية . والشعور الكريم، ذلك الذي يرى حياته كلها في مثل أعلى يطمع فيه ويسمو اليه » .

•••

يتبين لكم مما تقدم أيها السادة أن الشيخ كان مبشرا بعهد العلوم العقلية

العالية ولم يمض قليل من الزمن حتى أنشئت الجامعة المصرية صدى لامنيته الكبيرة العالية

لانزال الى اليوم نحتاج لى مثل هذه الصيحة تنبهنا الى اننا نريد علوما توجد فينا رجالا واسعي العقول .

نريد علوما تكون فينا اخلاقا ومدارك نباه وتحبب الينا الحياة او تبين لنا ما يمكن ان يكون في العيش من جمال وسمو .

نريد ذلك الآن ، وقد أراده الشيخ من قبل وجهر به واوصى فلا غرابة وقد اخذت امانيه تسير في سبيل التحقق ان يقوم في الجامعة المصرية أحد أساتذتها بذكر الشيخ بالحمد والتحية والاجلال .

أيها السادة . .

ان الوقت الذي قدر [illegible] لا يتسع لتعديد حسناته في حياتنا الاجتماعية ولكن حسبه من العظمة أنه كان من زعماء الدين ومن زعماء الدنيا معا .

توجه الى شؤون التصوف والتقى وفقه الدين ، ولكنه لم يهمل شؤون الاصلاح والعمران فؤاد تولاه نور السماء . ولكنه وسع مسائل الارض ،

ذهن وفق بين عالم الغيب وعالم الشهادة . .

رجل وصل بين الارض والسماء بسبب . .

« انه لرجل عظيم »

منصور فهمي

الاستاذ بالجامعة المصرية